

جغرافية ما قبل التاريخ

من الصعب وضع تحديد دقيق لعصر ما قبل التاريخ فهو يختلف بين مناطق العالم المختلفة وتركز دراسة جغرافية ما قبل التاريخ على بعض النواحي؛ أهمها تطور البيئة الجغرافية خاصة الحوال المناخية والنتائج المترتبة عليها خاصة التغيرات في توزيع اليابس والماء والتغيرات الفيزيوجرافية والتغيرات في الغلاف الحيوي، وتأتي بعد ذلك دراسة تطور الإنسان بيولوجيا وتطوره الحضاري في العصور الحجرية المختلفة أو حتى في عصر المعدن؛ ثم أخيرا انتشار الإنسان العاقل من موطنه الأول إلى مناطق العالم المختلفة حيث اكتسبت كل مجموعة وصلت إلى منطقة معينة صفات خاصة تميزها عن المجموعات الأخرى.

- الجغرافية التاريخية لعصور ما قبل التاريخ :

اتفق علماء الجغرافية على إطلاق تعبير ما قبل التاريخ على العصر الذي سبق معرفة الإنسان للكتابة، تلك الفترة سابقة على بدء تسجيل الإنسان لأعماله وآرائه في سجلات مكتوبة، سواء كتبها كنقش على الحجر أو الطين أو خطها في القراطيس أو ورق البردي أو قطع الفخار إلى غير ذلك، وبعد ذلك ترك الأمر لتلك السجلات كي تروي قصة الإنسان عبر التاريخ، أما العصر الطويل الذي سبق هذا العصر فليس لدينا عنه سجل مكتوب، بل آثار صامتة ليس بها مدونات مكتوبة ، ولكن الكثير من العلماء ينظرون إليها على أنها أكثر إفصاحاً من تلك المدونات المكتوبة بلغات ربما لم تصل بعد لإدراكها أو لأنها يكون بعيدة عن كثير من الزيف الذي يتعمده الإنسان أحياناً في تاريخه المكتوب.

لم يستطع الجغرافيين أن يعرفوا متى انتهى عصر الآثار أو متى بدأ التاريخ المكتوب، كما وأن عصر ما قبل التاريخ لم ينتهي في جميع أنحاء العالم في وقت

واحد، فالشعوب تختلف وتتفاوت في الوقت الذي بدأت فيه تعلم الكتابة وتسجيل تاريخها حسب حضارة كل منهم، فتجد الحضارتين المصرية والعراقية عرفتا الكتابة في وقت مبكر جداً، وكان ذلك تقريباً في الألف الثالثة قبل الميلاد، بينما تأخرت الحضارة اليونانية في جزيرة كريت في معرفة الكتابة إلا في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، مما يعني أنها تأخرت عن الحضارتين السابقتين بحوالي ألف سنة، ثم تتابعت معرفة الكتابة في تواريخ متلاحقة في كثير من بلاد العالم الأخرى بعد ذلك، بل لا تزال بعض الشعوب البدائية تعيش في عصر ما قبل التاريخ، نتيجة أنها لم ترقى بحضاراتها حتى تدخل التاريخ بعد حتى الوقت الحاضر، مثل الشعوب الاسترالية الأصلية وشعب البوشمن في جنوب إفريقيا والأقزام في وسط إفريقيا، لأن هذه الشعوب ليس لها لغات تسجل بها تاريخها. من البديهي أننا لا نعرف بداية عصر ما قبل التاريخ إذا كنا لم نعرف نهايته، ولكي تصل إلى حل هذه المسألة يجب أن تدرك أننا يصدد تاريخ الإنسانية على الأرض، سواء كان التاريخ غير مكتوب (عصر ما قبل التاريخ) أو مكتوباً وهو الذي تعرفه بالتاريخ الإنساني، وعلى أية حال فمقياسنا هو عمر الإنسان نفسه على سطح الأرض، ومن ثم فإن عصر ما قبل التاريخ يبدأ بظهور الإنسان نفسه، وفي هذا الصدد ستقابلنا صعوبة وهي أي إنسان نقصته؟ هل تعني الإنسان العاقل الحالي، أم الإنسان البائد المنقرض؟ وعلى أية حال فإن الإنسان العاقل الحالي وكما تدل الأدلة الأثرية هو وريث حضارات أخرى سبقتة إليها وأورثته إياها تلك الأنواع البائدة، أما الأنواع البائدة المعروفة بالمنتسبة القائمة فتضم إنسان (نياندرتال) و (جاوة) و (الصين) (وهيدلبرج)، و أشباه البشر التي وجدت بقاياها في جنوب إفريقيا، الحديث عن الإنسان هذا ترتبط بالحديث عن الحضارة، والإنسان وحده هو القادر على صنع الحضارة، فإذا ثبت أن أشباه البشر هؤلاء قد صنعوا حضارة، فيمكن عدّهم بشر أسوياء.

حاول علماء الجغرافيا التاريخية قد جاھدين معرفة متى بدأ عصر ما قبل التاريخ، والذي بدأ من وجهة نظر الكثير منهم في عصر البلايستوسين"، وبدأ بظهور بعض أشكال الإنسان الأولى مثل تلك التي سبق ذكرها، ويعتبر عصر ما قبل التاريخ جزء من الزمن الجيولوجي الرابع ضمن عصرية البلايستوسين و الهولوسين، وفي هذه المدة لم يعرف الإنسان الكتابة، ولذلك كانت الأدلة التي تعتمد عليها في دراسة الجغرافيا التاريخية لهذه المدة تختلف كل الاختلاف عن الأدلة التي يعتمد عليها المؤرخون هذه الأيام، فنجدهم في دراستهم لمدة ما قبل التاريخ يعتمدون على البقايا والآثار الطبيعية والبشرية المطمورة في رواسب الرمل والطين الركامات الجليدية والتي تعود إلى عصر البلايستوسين، ويجب أن تعرف أن دراسة عصر ما قبل التاريخ على أسس علمية لم يتم الاهتمام بها إلا في القرن التاسع عشر، حيث أمكن عن طريق دراسة الرواسب الجليدية وبقايا الحفريات في جهات متفرقة من العالم إعطاء صورة واضحة عن التغيرات الحضارية والطبيعية خاصة المناخية التي حدثت في عصر البلايستوسين.

ويمكن دراسة الجغرافيا التاريخية لعصر ما قبل التاريخ من أربع وجهات نظر مختلفة وهي:

أولاً: تطور البيئة الجغرافية التي ظهر فيها الإنسان ودراسة الأحوال المناخية السائدة في عصر البلايستوسين والنتائج الفيزيوجغرافيا التي ترتبت على هذا .

ثانياً: تطور الإنسان من الرئيسيات العليا إلى الإنسانيات.

ثالثا : كيفية انتشار الإنسان العاقل على هيئة مجموعات بشرية من موطنه الأول إلى جميع بقاع المعمورة حيث اكتسبت كل مجموعة من المجموعات البشرية صفات خاصة في مناطق تخصصها مما جعلها متميزة عن سواها.

رابعا: المراحل الحضارية المختلفة التي مرت بها الإنسانية منذ ظهور الإنسان العاقل وحتى اختراع الكتابة.

يتميز الزمن الجيولوجي الرابع عن باقي أزمنة الحياة الحديثة بتطور الأنواع البشرية وظهور الإنسان الحالي الذي تنتمي إليه والذي يطلق عليه اسم الإنسان العاقل، وهذا هو السبب الذي من أجله يعتبره الجيولوجيين الزمن الأهم ويتعاملون معه بعناية خاصة، ويطلقون عليه اسم الزمن الرابع أو الرباعي، كما يسمون العصر الذي يسبقه (البلايوسين) باسم الزمن الثلاثي، في هذا العصر سارت الإنسانية في خطوات حضارتها الأولى، وبدأ يظهر فيها الفكر الإنساني الأول والذي ربما واكب ظهور الإنسان نفسه، وقد تميز الإنسان بصفاته الجسدية والعقلية الخاصة تلك التي تضعه في مكان مميز بين الأحياء على سطح الأرض، وتميزه هذه الصفات عن غيره من الثدييات وتجعله قادراً على أن يكون صانعاً وفناناً، ومبدعاً لحضارات ظل يستخدم فيها الحجارة وآلات الصوان أمناً طويلاً، ومن أجل ذلك سميت بحضارات العصر الحجري لاعتماده على الحجارة في صياغتها، وقد سبقت هذه الحضارات معرفته بالكتابة والتدوين أو ما يعرف بالسجل التاريخي، ولذلك عرفت هذه الحضارات أيضاً بعصر ما قبل التاريخ.

وإذا كان هذا العصر تميز بتطور الحضارات الإنسانية الحالية، فإنه أيضاً تميز بتطور المسرح الذي تلعب فيه الإنسانية الحالية دورها في الحياة، أو بعبارة أخرى تطور البيئة الجغرافية التي استقرت معالم تضاريسها الكبرى في عصر الميوسين في الزمن الثلاثي، وقد تحددت في عصر البلايستوسين العلاقة بين اليابس والماء على

الشكل الذي تعهده الآن، كما تطور المناخ والنبات تطورات عديدة في هذا العصر حتى استقر إلى الوضع الذي تعرفه الآن.

- نشوء الفكر الجغرافي وتطوره:

ليس من الممكن تحديد ظهور وتطور الفكر الجغرافي، وإنما يمكن الربط بينه وبين المرحلة التي بدأ فيها الإنسان محاولة التأمل بوعي وإدراك للظواهر الطبيعية المحيطة. والبحث عن إمكانية البيئة ومحاولة استغلالها وإيجاد السبل لاستثمارها، عندئذ يمكن القول بأن الجغرافية قديمة قدم التاريخ البشري كانت بداية المعرفة الجغرافية محدودة بسبب محدودية حركة الإنسان، وبذلك يمكن وصف المعرفة الجغرافية بأنها ذات طابع مكاني محدود، وتأتي هذه المحدودية نتيجة عدة عوامل منها:

- 1 - كفاية مقومات البيئة المعيشة للإنسان بسبب قلة أعداد السكان في تلك الفترات.
- 2 معرفة الإنسان بظروف البيئات البعيدة كانت محدودة، واقتصرت معرفته على المناطق التي تمتاز بالسهولة، إذ إن الإنسان كان يرتاد المناطق السهلة والأمنة للبحث عن مصادر رزقه وإدامة حياته، متجنباً المناطق ذات الطابع القاسي.
- ولقد تمكن الإنسان - قبل أن يتمكن من معرفة الكتابة، إلى عمل بعض الرسوم البسيطة أو الخرائط على قطع من الجلد أو الحجر ليبين فيها بعض الدروب والمسالك التي يسلكها في مواسم الصيد، كما أن فطرته دفعته إلى تصوير بعض الظواهر الطبيعية في بيئته، كالأنهار والجبال والأشجار والبحيرات والظواهر المناخية القاسية بصورة بدائية على الصخور وجدران الكهوف ، خوفاً منها ومن ثم تقديسها.
- ومما زاد من صعوبة العيش في هذه المرحلة من عمر الإنسان ، التغيرات المناخية التي طرأت على الأرض فرضت عليه نمطاً معيناً في المعيشة فظهر العصر

الجليدي الذي أدى إلى انخفاض درجات الحرارة وانغمار مساحات واسعة من العالم لاسيما أوروبا بطبقة من الجليد الذي زحف إلى الأجزاء الجنوبية منها، دفع بالإنسان إلى الالتجاء إلى الكهوف، أو النزوح إلى الجنوب الشرق الأدنى، وجنوب آسيا وإفريقيا حيث تكثر الأمطار وترتفع معدلات الرطوبة والتي شملت منطقة الجزيرة العربية والصحاري الإفريقية .

وعندما انتقل الإنسان من حرفة الجمع والالتقاط إلى حرفة الزراعة في أواخر العصر الحجري، تبدأت أساليب معيشته وتحول من مستهلك إلى منتج، ففرضت عليه هذه الحرفة معرفة جديدة بأحوال البيئة التي يعيشها، كما فرضت عليه الاستقرار في مناطق معينة طيلة موسم الزراعة، الأمر الذي دفعه إلى بناء المساكن وتأسيس المراكز الحضرية المتمثلة بالقرى، فهذا الأمر فرض على الإنسان البحث عن مصادر الحياة الثابتة، فلجأ إلى ضفاف الأنهار وبذلك تهيأت له فرصة الارتقاء بالمعرفة الجغرافية كمعرفة مواسم الفيضانات والربط بين مواسم الفيضان وفصول السنة المختلفة، مما ساهم باتساع إمكانياته الزراعية فلجأ إلى تقسيم الأراضي الزراعية وإيجاد الطرق التحديد المساحات ورسم الخرائط لذلك، كما لجأ إلى مراقبة النجوم والسماء الحساب مواعيد الزراعة، ومن هنا بدأت طلائع الفكر الجغرافي المرتبطة بمعرفة الأجرام السماوية، وابتكر طرق حسابية ورياضية لضبط حركة الأجرام السماوية ومواعيدها .

مع دخول الإنسان عصر المعادن باكتشافها والتعرف على خصائصها، تهيأت له فرصة أكبر للسيطرة على بيئته، بعد استخدام المعادن في وسائل الإنتاج وصناعة الأسلحة، الأمر الذي ساهم في تطور الزراعة وزيادة الإنتاج ووجود الفائض في المواد الغذائية، هذا الأمر شجع على ظهور نشاط جديد وهو التجارة، الذي فرض على الإنسان معرفة أوسع بالبيئة الجغرافية بحكم حركة التي اتسعت واتصاله بالأقوام

البشرية الأخرى، مما ساهم بتنوع معرفته وتطور مستوطناته والقرى التي يسكنها، فظهرت بواذر المدن الأولى والتي تحولت تدريجيا إلى دويلات، ونشأت الحكومات التي أخذت تهتم بتشبيد المدن ودور العبادة وتحديد مواقعها وعمل الخرائط لتخطيط المدن والمعابد والطرق التي تربط ما بين هذه الظواهر، ومن ذلك يمكن القول أن الفكر الجغرافي عند الشعوب البدائية والحضارات القديمة ارتكز على جانبين أحدهما فلكي والآخر الكشف الجغرافي ظهر كلاهما بهيئة رسومات وخرائط.